tasavvuf ilmî ve akademik araştırma dergisi
26 [2010/2], s. 209-219

التصوف في تاريخ الجزائر

الأستاذ الدكتور زعيم خنشلاوي*

إن تسمية الجزائر بدار الهجرة و مستقر الإيمان ترجع إلى أمير المؤنين عبيد الله المهدي سليل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله الذي كان قد هاجر متنكرا في زي تاجر برفقة ولده القائم من سلمية بأعالي الشام إلى بلاد كتامة أين أعلن قيام دولة الإمامة الفاطمية يوم الجمعة 21 ربيع الآخر سنة 297 للهجرة الموافق 9 يناير 910 للميلاد بالموضع المعروف بفج الأخيار بإكجان الواقع بمنطقة القبائل الصغرى.

العروق النبوية للتصوف الجزائري :

من جلائل الأحداث التي طبعت التأريخ الروحي للإنسان إنصداع فجر التصوف من قلب المغرب و إندفاق عيون الحكمة العالية التي أخصبت لعدة قرون إلى يومنا الحاضر طوايا التراث المعنوي للبشرية. حتى تعاقبت على الإستحمام بهذه الطاقة الضوئية أجيال من الجزائريين و طال إشعاعها أرجاء الأرض حتى تمكن القريب و البعيد من الإغتراف من هدية النور و الإرتواء من زمزم العرفان.

من المسلم به أن التصوف الجزائري قد أغدق على روحانية المشرق و المغرب مما يوحي بقدسانية و نورانية تراب هذا البلد الطاهر المشرق بالجمال الذي كتب له القدر أكثر من مرة شرف الشهادة وولته السماء مرارا وظيفة نحر قوى الشر على عتبات النور تمكينا لإنجلاء حقبة أولياء الله المجيدة و إستشفاعا بمقامهم الأسنى للوقوف في وجه الطاقات الظلمانية.

يكتسي العرفان الجزائري بعدا كونيا ماورائيا يتعدى الحدود الترابية للوطن. فهو يساهم بلا إنقطاع، منذ أربعة عشر قرنا، في تبجيل الإحتفاء المجيد بخدمة الله في أرجاء العالم. إن الطاقة النورانية للخطاب الإلهي معبأة بأكملها في التصوف الذي يحق للجزائر أن تفتخر بإكتناز أرضها أحد أقدس مناجمه و أثمن معادنه.

ترجع إرهاصات الظاهرة الصوفية في الجزائر إلى الساعات الأولى لظهور الإسلام حينما تحولت أرض المغرب الأوسط تحديدا إلى ملجئ آمن لذرية رسول الله الذين لاذوا بترابها فرارا من ملاحقة بني أمية و بني العباس خصوصا بعد المجازر التي ارتكبت بحقهم خلال مأساة كربلاء سنة 680 و واقعة فخ سنة 762 حتى أصبحت الجزائر تنعت عند أهل البيت " *بدار الهجرة و مستقر الإيمان* «.

* وزارة الثقافة الجزائرية

فعلى إثر قمع ثورة محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب التي كان قد باركها الإمام مالك إمام أهل المدينة لجأ أخوه سليمان إلى حوزة عين الحوت من أحواز تلمسان أين أرسى حفيد النبي محمد عليه السلام القواعد الروحية لجامع أغادير العتيق أول مسجد بني بالمغرب الأوسط لبث تعاليم جده السماوية إلى أن توفاه الأجل سنة 795 مورثا بركة جده المقدسة إلى سلالته الشريفة كما توارثتها سائر فروع الدوحة الفاطمية المنتشرة في ربوع الجزائر.

فباستقرار الشرفاء من ذرية خيمة الكرم العظمى و شفيعة الموالي السيدة فاطمة الزهراء بالمغرب الأوسط تم غرس البذور الأولى لثقافة الزهد و التصوف و كذلك بث روح المساواة بين صفوف الشعب. إذ يمكننا القول في هذا المضمار أن تأريخ الإسلام بالجزائر مرتبط عضويا بروحانية أهل البيت الذين تولوا مهمة فتح قلوب البربر بعد أن تم فتح أرضهم.

يأتي هذا مصداقا للحديث الذي رواه سيدي علي حشلاف قاضي المالكية و نقيب الأشراف في الجزائر في بداية القرن العشرين مرفوعا إلى السيدة فاطمة الزهراء قالت : « *سمعت رسول الله يقول أن لي بالمدينة أنصارا و لولدي بالمغرب أنصارا يا فاطمة سيقتل الحسن و الحسين و لا يجد ذريتهما أنصارا إلا البربر فيا شقاوة من قتلهما و يا سعادة من أحبهما يا فاطمة قد جعل الله في قلوب البربر لذريتي محبة و رحمة و سيكون قوم من البربر على اليقين و الدين إلى يوم الدين* ». فضلا على الإعتقاد الشعبي المحلي في الرجال السبعة الذين يكونون قد لقوا النبي في حياته و كلموه بلغة البربر فأجابهم عليه السلام بلغتهم و حملهم كتابا مختوما لسكان المغرب. ما يدل على العروة الوثقى التي تربط البربر بمنبع الرسالة المحمدية و تحميلهم الأمانة الإلهية.

من المحقق أن الشرفاء من السلالة الفاطمية التي يجري تكريمها و تمجيدها شعبيا في الجزائر قد عرفوا بتفانيهم في الإنتصار لحقوق الموالي من غير العرب إزاء إضطهادات و تجاوزات الولاة الأمويين الذين عمدوا إلى تخميس البربر حيث فرضوا عليهم خمس أموالهم بدعوى أنهم فيء للمسلمين متعدين في ذلك الأعشار و الزكوات الشرعية لولا مقاومة آل البيت النبوي الشريف لهذه التجاوزات الخطيرة المخالفة لتعاليم جدهم مؤسس الدين الإسلامي مما أكسبهم إنجذاب البربر الفطري المفعم بالود و الإحترام و التقديس و الموالاة.

عرفانا منهم بالجميل، تحمل البربر بدورهم أمانة الدعوة للرضى من آل محمد و الإنضواء تحت رايتهم الموشاة بالأخضر و الأحمر التي توارث ألوانها العلم الجزائري الحالي. فهم الذين وطؤوا لتأسيس الخلافة الفاطمية بالجزائر بإستقدامهم الإمام المستور عبيد الله المهدي بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله الذي هاجر متنكرا في زي تاجر برفقة ولده القائم من سلمية بأعالي الشام إلى بلاد كتامة أين أعلن قيام دولة الإمامة الفاطمية يوم الجمعة 21 ربيع الآخر سنة 297 للهجرة الموافق 9 يناير 910 للميلاد بعد قرنين من الكفاح السري بالموضع المعروف بفج الأخيار بإكجان الواقع بمنطقة القبائل الصغرى.

لقد كانت لهذه المملكة الباطنية التي قامت على أكتاف قبائل كتامة البربرية مآثر حضارية و فكرية

لا تحصى منها جامع الأزهر بالقاهرة الذي تبركت بالمساهمة في تأسيسه عقول و سواعد جزائرية في منتصف القرن الرابع الهجري. ففي قلعة الفكر الخالدة هذه إنعقدت أولى مجالس المذاكرة التي أرست الدعائم الفلسفية لمدرسة العرفان الإسلامي. هنا تبلورت نظرية الإنسان الكامل المرتبطة بمبدأ الحقيقة المحمدية أو كلمة الله الذي ورد في إنجيل يوحنا و الذي إنسلت عنه فكرة القطبانية و تم ترتيب نظام الحدود الإسماعيلي الهرمي المقتبس من مراتب الصوفية كالأبدال و الأوتاد و النقباء و النجباء كما جاء في الأثر. ففي ظلال الأزهر الشريف إتصلت روحانية الشرق و الغرب و الماضي و الحاضر حتى إستحال التمييز بين ما هو من صميم العرفان الإسلامي و ما هو من صميم الحكمة البابلية و الفرعونية دون أن ننسى الأفكار الغنوصية و القيم الهرمسية التي ساهمت في تلقيح المدرسة الصوفية فكان المولود الجديد القديم قدم الإنسانية أول صورة ناجحة للعولمة الروحية تتشرف الجزائر بتبنيها و رعايتها.

لا يسعنا في هذا المقام نسيان عقيدة المهدوية التي هي لصيقة بالتصوف الجزائري حيث تعود فكرة «مولى الساعة» باستمرار. هذه الفكرة التي و إن انعكست تباعا على أجيال عديدة من الأولياء، إلا أنها لم تتبلور بشكل نهائي سوى حول هذا الشخص الخارج عن إطار الزمان، الذي به ينعقد جمع الصدّيقين لينهي دور الكوارث و العنف و الظلم و ليفتتح عهد الوئام و السلام و العدل، ما يشبه العصر الذهبي أو الكور الأعظم الذي تتحدث عنه الديانات الشرقية.

إنها المدينة الفاضلة التي تناولها الفلاسفة العرب و الإغريق، مدينة *«أتقياء آخر الزمان»* التي يتكلم عنها الكتاب المقدس، العصر الطوباوي الذي يطابق الحقبة التي ستنجز على الأرض بظهور المهدي الذي يوطؤ للقيامة. و كأن هذا المشهد الذي يختمر في الروحانية الجزائرية يسعى لحثنا على تغليب الخير على الشر و السعي لعودة الفردوس المفقود حالا و مآلا.

إن إختصاص أهل بيت النبي عليه السلام بطهارة الأصل الجسداني و الروحاني و رسوخ قدمهم في مجال الحقيقة جعلهم قدوة الصوفية و مشرب معارفها. فقد وصل شيوخ الطريقة أئمة أهل البيت بمذهبهم و جعلوهم من مؤسسي سلسلة السند المقدس كما أعزوا إليهم هيكلة مقومات سلوكهم الصوفي كالولاية، العصمة، الكرامة، الشفاعة، الكتمان، التأويل الباطني للشريعة و كذا مجمل نظمهم و تقاليدهم الرسومية و الإعتبارية كالمرقعة و الخرقة و الصحبة ما يؤكد خطورة شأنهم و علو درجتهم في ميدان الروح.

فمن المعلوم أن معظم مؤسسي طرائق الحقائق، التي يفوق عددها في الجزائر اليوم الأربعين طريقة صوفية، إن لم يكن جميعهم، ينحدرون من أصل شريف. و من ثم لما ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة لكونها صارت ملكا عضوضا عوضوا عنها الخلافة الباطنة حتى ذهب إلى أن قطب الأولياء لا يكون إلا منهم بل هذا مسطور في كتب القوم و صرح به أكابر الأولياء كالجيلي و إبن أدهم و إبن العربي و غيرهم و هذه الخلافة العظمى و ناهيك بها شرفا. نذكر أشهرهذه السلاسل الروحية حسب الترتيب الأبجدي :

البكائية	الجزولية	الزروقية	الصديقية	القادرية
البكرية	الحبيبية	الزيانية	الطيبية	الكرزازية
البوزيدية	الحنصالية	السحنونية	العروسية	الكنتية
البوسنية	الدردورية	السنونسية	العزوزية	المدينية
البوعبدلية	الدرقاوية	الشابية	العلوية	الناصرية
البوعلية	الراشدية	الشاذلية	العمارية	الهبرية
التيجانية	الرحمانية	الشيخية	العيساوية	الوزانية

يذكر في هذا المضمار المساهمة الروحية المتأخرة و الحاسمة للشرفاء الصقليون المنحدرون من قطب دائرة الإمكان الجامع بين الحقيقة و الشريعة أبو الحسن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي ترجع إليه رئاسة أم السلاسل الروحية على الإطلاق المعروفة بسلسلة الذهب التي تتصل بسندها جميع طرق الفروع الأخرى المعروفة في الجزائر و سائر العالم. فهؤولاء تركوا مع أبناء عمومتهم من ذرية الإمام موسى الكاظم صقلية عقب تغلب النورمان و لجأوا إلى الأندلس أواخر القرن الحادي عشر و من ثم إلى حواضر المغرب الأوسط و على وجه التحديد إلى بجاية الناصرية مع حلول القرن الرابع عشر و ما رافقه من تقعيد قواعد و تنظيم رسوم الطريق الصوفي الذي أضحى مدرسة قائمة بذاتها ممتلكة لفكر و لمصطلحات و مناهج خاصة بها.

كما يحتمل جدًّا أن يتأكد تصريح بعض العائلات الشريفة الجزائرية التي تنسب نفسها إلى سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني 1077/1166 الصوفي الأكثر تكريما في الجزائر العائد أصله الشريف إلى إقليم جيلان أو كيلان ببلاد إيران، الواقع جنوب بحر قزوين. إذ من المعلوم أن أولاده و على رأسهم سيدي إبراهيم يكونون قد هاجروا من بغداد إلى هذه الديار أين شيّدوا زوايا عديدة منها زاوية المنعة بالأوراس لنشر طريقة والدهم في الذكر و التأمل التي تعد من أقدم الطرق الصوفية بالجزائر.

لم يستقطب الورع و الزهد طبقة المحكومين فحسب بل تعداه ليخترق أبراج الحكام و الملوك. فقد كان السلاطين الملثمون من حكام الدولة المرابطية الذين حكموا الجزائر من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجري أسوة يقتدى بها في ميدان التقشف و التبتل حتى أنهم كانوا أقرب إلى الرهبان منهم إلى الملوك و على رأسهم يوسف بن تاشفين الذي بلغ به التواضع و الإنكسار إلى الإلتزام بلباس الصوف و الإمتناع عن غيره من الأردية التي أباحها الشرع.

كما أسهم من بعد المرابطين إمام الموحدين القائم بأمر الله محمد بن تومرت في بلورة التصوف بالمغرب الأوسط بفكرة المهدوية كما ألبس حواضر قسنطينة و بجاية و تلمسان لباس التبتل و المسوح. بينما أقام مركز دعوته برباط ملالة أين عمل على بث مبدأ التأويل الذي إعتمده كوسيلة إلى المعرفة التحقيقية تماما كما تذهب إليه المدرسة الصوفية في إعتمادها التجربة الروحية كسبيل أكيد مؤدي إلى الكشف و الإيقان.

كما برزت أسماء ملوك و أمراء و قادة جزائريون تميزوا تأريخيا عن غيرهم من الحكام بإحترامهم

الشديد للصوفية و لخدمتهم لهم بإخلاص و إجلال و تفان. بل منهم من تصوف و تمربط و ثبتت ولايته نذكر منهم أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الندرومي مؤسس دولة الموحدين في المغرب الكبير و الأندلس و السلطان الزناتي يغمورسن بن زيان و الأمير الحمادي أبو يوسف يعقوب الصنهاجي و الأمير عبد القادر الجزائري و آخرهم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الذي إتصفت عهدته بإعادة الإعتبار نهائيا للتراث الصوفي الذي يعرف إنبثاق عهد جديد بعد أن إنبرى المسؤول الأول للدولة الجزائرية جاهدا لوضع حد للمعاناة التي لحقت بنسغ هويتنا و ركيزة شخصيتنا ليس فقط من لوعات الزمن بل كذلك من تجاهل و تطرف العباد و المؤسسات. فبفضل هذه الرؤية المتبصرة التي تستكمل مسار المصالحة الوطنية تستفيق الجزائر من غيبوبتها الروحية و تستعيد ذاكرة التصوف و العرفان بعد إنقضاء سنوات الردة عن الذات و الكفران بالنفس .

من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر :

على مر القرون، توطد التصوف الجزائري و تشعبت شبكة إتصالاته بفضل إزدهار الحركة التجارية التي ربطت بلاد السودان بالبحر الأبيض المتوسط عبر طرق واسعة امتدت من الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد و تمبوكتو فضلا عن الأسطول الجزائري الضخم الذي كان يجوب البحار بين أوربا و إفريقية و الهند و كذا فتح المزيد من الثغور و الرباطات التي أمنت السواحل و كرست قواعد الحركة الزهدية المرابطية التي تولدت عنها سائر الطرق الصوفية كما أرست تقاليد الفتوة المرتكزة أساسا على مثل الشهامة و النجدة و الإيثار و غيرها من مكارم الأخلاق.

لكن إعتبارا من القرن السادس للهجرة بدأت المصادر التأريخية تشير إلى ظاهرة جديدة في الجزائر مفادها تخصيص فضاءات قدسانية منقطعة للتأمل و الصلاة القلبية عرفت بالزوايا - من مصدر زوي، إنزواء، زاوية، إشارة إلى مكان العزلة و الخلوة - التي أخذت شيأ فشيأ تحل محل الرباطات التي عادت إلى وظيفتها الدفاعية الأولى و التي كانت قد أرسيت إعتبارا من نهاية القرن الأول للهجرة و إن لم تتكاثر عندنا إلا بحلول القرن الخامس الهجري أشهرها رباطي عنابة و شرشال و رباط الفتح بوهران. و كأنه حصل إعادة توزيع للأدوار بجعل الرباطات التي امتدت من ميناء القالة شرقا إلى ميناء الغزوات غربا تقوم مقام الجهاد الأصغر بحمايتها للثغور و مراقبتها للعدو القادم من البحر و الإستعداد لمقاومته عبر التدريبات القتالية بينما عادت وظيفة الجهاد الأكبر للزوايا أين تلقن تعاليم الإعتكاف و التبتل مع تقنيات مراقبة النفس و كبح أشباح الغريزة عبر الزهد و الصمت و الإنقطاع إلى حضرت الله و تلاوة إسمه العظيم الأعظم و الإستنكاف عن غيره تحقيقا لمعادلة النفي و الإثبات التي جاء بها الإسلام و المختزلة في شهادة أن لا *إله إلا الله* أي لا موجود - تحقيقا - إلا الله تقدس إسمه.

كانت زاوية أبي زكريا يحي الزواوي بحي اللؤلؤة، رائدة هذه المعاقل الإيمانية التي تكاثرت بشكل ملحوظ بمدينة بجاية لدرجة أن عاصمة الحماديين صارت لقداستها و طهارتها حرما آمنا يستلزم على كل من دخلها من الغرباء و المسافرين أداء شعائر الوضوء ببئر *السلام* قبل تخطي عتبة أسوارها. فلقد سبقت لها العناية و الستر بسبب الإعتقاد في كونها هي « *العين التي تغرب فيها الشمس*» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم { سورة الكهف، آية 83 ـ87 } بخصوص رؤيا ذو

القرنين. تربى في أكناف قدس بجاية و إستلهم من فيض مددها أحد أساطين هذا الأمر، ألا و هو الشيخ الأكبر و الكبريت الأحمر إبن العربي أحد أتباع قطب أقطاب التصوف على الإطلاق و شيخ مشايخ المشرق و المغرب فخر الجزائر من بجاية إلى تلمسان سيدي أبي مدين شعيب بن الحسن الأنصاري الملقب بغوث الله الأعظم لعلو مقامه و خطورة شأنه في هذا المجال.

و لقد إشتد إنتشار المرابطين و الصوفية بالجزائر إعتبارا من القرن الخامس عشر إلى أن إستكملت الزاوية وظائفها النهائية في العهد العثماني الذي شهد تكاثرا مظهريا لطرق السلوك والمجاهدة و ما رافقها من تعدد ملفت للخلوات و المعابد و الصلوات التي يذكر فيها إسم الله.

لكن إعادة التوزيع الهيكلي التي مست الزوايا و الرباطات لم يكن لها لتمنع إستمرار تخرج كبار العباد و الزهاد من الرباطات عرفوا بالمرابطين كما لم يكن لها لتمنع بروز مقاتلين جواسر تولوا الذب عن حياض هذا الوطن ضد محاولات الغزو المتكررة التي ما إنفك يقوم بها الإسبان و البرتغال و النورمان حتى استحالت في بلادنا اليوم التفرقة و التمييز بين المرابط و الصوفي.

فسرعان ما إستعادت الزاوية وظيفة تكوين مجاهدي النور الأشاوس الذين إنتفضوا ضد طغيان العباد و المؤسسات خاصة عقب الإحتلال الفرنساوي من طراز الأمير الشريف سيدي عبد القادر بن محيي الدين مقدم الطريقة القادرية بمعسكر، عذراء الجبل المرابطة الشريفة لالة فاطمة أنسومر بنت سيدي محمد بن عيسى مقدم الطريقة الرحمانية لدى قبائل زواوة، المجاهد الشريف سيدي محمد بن عبد الله المعروف ببوبغلة مولى الساعة أحد وجوه ثورة الإخوان الرحمانيين بمنطقة سور الغزلان و جبال جرجرة، الثائر الشريف سيدي محمد بن عبد الله المعروف ببومعزة الذي قاد ثورة الظهرة إنطلاقا من زاويته الطيبية، الشيخ بوعمامة، أحد مقاديم الطريقة السنوسية الذي إستأنف ووسع نطاق ثورة أولاد سيدي الشيخ التي إستنفرت واحة الأبيض حيث مرقد الشيخ عبد القادر بن محمد فكان على رأس أطول ثورة قام بها الشعب الجزائري دامت قرابة 25 عاما.

كما برزت عدة أسماء أخرى ذات رابطة بالزوايا تميزت بإقتدارها و جسارتها في ميدان الكفاح المسلح من أمثال الشيخ الشريف أحداد الذي جلس على السجادة العلية الرحمانية بعد إنتقال شيخه الأجل الذي ورثه بركته و و كيله المغوار ببلاد القبائل الشيخ المقراني، الشيخ بوزيان مقدم الطريقة الدرقاوية الذي قاد ببسالة ثورة الزعاطشة، دون أن ننسى الأسماء المعاصرة التي أنجزت أو وطأت لثورة أول نوفمبر 1954 التحريرية الكبرى من أمثال مصالي الحاج زعيم الحركة الوطنية الجزائرية إبن الزاوية الهبرية بتلمسان، البطل الشهيد العربي بن مهيدي المتتلمذ بالزاوية المهايدية بعين طيلة، البطلين الشهيدين مصطفى بن بو العيد و سي الحواس الذان تلقيا تربيتهما بالزاويا الرحمانية بأوراس و غيرهم كثير من الشهداء و المجاهدين الذين أنجبتهم زوايا الجزائر.

لم يقتصر جهاد المرابطين الجزائريين على الحدود الجغرافية لوطنهم الأم بل تعداه ليشمل كافة أوطان الإسلام و المسلمين من شمال إفريقية و الشرق الأوسط إلى جنوب الصحراء الكبرى و من سواحل الصومال شرقا إلى السنغال غربا. فإلى البطل الشهيد عمر المختار أحد مقاديم الطريقة السنوسية يرجع الفضل في تحرير ليبيا من الإستعمار الطلياني.

في القرن التاسع عشر، حارب مؤسسها الشيخ السنوسي الإستعمار الفرنساوي بالجزائر إنطلاقا من منفاه بزاوية جبل أبي قبيس بمكة المكرمة قبل أن ينتقل إلى الجبل الأخضر بليبيا أين أنشأ زاويته التي عرفت بالزاوية البيضاء حتى إعتبرته أوربا و على رأسها القوى الإستعمارية الثلاث حينئذ - الفرنسيس، الإنكليز و الطليان- العدو الأول لها في إفريقيا التي دخل العديد من أبنائها إلى الإسلام خاصة بالنيجر و الكوانغو و الكاميرون بفضل جهود هذا المجاهد الصوفي الذي جمع بين الجهادين الأصغر و الأكبر. فإليه يرجع الفضل في تحرير رقاب آلاف الأفارقة السود قاضيا بذلك على سوق النخاسة التي كانت مزدهرة ببلاد السودان. لقد ترك الشيخ السنوسي بعد وفاته شبكة عالمية من الزوايا ذات إنضباط عالي منتشرة في أقطار كثيرة من العالم الإسلامي خاصة بوطنه الأم الجزائر و موطن هجرته بالقطر الليبي و كذا بتونس، المغرب، السودان الشرقي و الغربي ، مصر، الحجاز، اليمن، تركيا و الهند.

فكانت السنوسية بذلك أكثر الطرق الصوفية الجزائرية عالمية على غرار التيجانية التي أسهمت في نشر الإسلام في ربوع إفريقية الوسطى و الغربية، إلى وادى النيل و حتى حدود الحبشة. تضم هذه الطريقة الجزائرية المولد و الإفريقية المشرب اليوم زوايا، ليس فقط في موطنها الأصلي الجزائر بل في قارات أخرى.

ففضلا عن الزوايا التي أسست حديثا من طرف الجاليات الإفريقية المقيمة في أوربا الغربية وأمريكا الشمالية فإن التجانية متجذرة تأريخيا في جنوب شرق أوربا أين تعد من بين الأحدى عشرة طريقة صوفية التي نجت و استمرت في نشاطها بصورة منظمة و مهيكلة بعد الحرب العالمية الأولى بالرغم من الخراب الذي سببته الجيوش اليونانية و البلغارية في حق مسلمي البلقان. يتمركز مريدي الطريقة أساسا في إقليم كوسوفا و ألبانيا أين استمر دادات الطريقة في المحافظة على روابط متينة مع الزاوية الأم بالجزائر حتى الثلاثينات من القرن العشرين. كما يسجّل حضورا تيجانيا في الشرق الأوسط العربي و غير العربي، بخاصة في مصر، في الشام، في فلسطين و في بلاد الأناضول. انطلاقا من جزيرة العرب، وصل التيجانيون إلى ماليزيا و أندونيسيا إلى أن اقتحموا ربوع جنوب شرق آسيا. تعد اليوم التيجانية أحد أكثر الطرق عالمية. فحسب بعض الإحصائيات الغير رسمية، يسجّل لها حضورا في 140 دولة و تضم في صفوفها أكثر من 250 مليون منتسب عبر العالم.

نذكر في هذا المقام هجرة سيدي الحاج بن يلس من تلمسان إلى الشام إثر فرض الإستعمار الفرانساوي التجنيد الإجباري و إستقراره بحي الشاغور، حيث قام بنشر الطريقة الدرقاوية و التحريض على مقاومة الإنتداب. أثناء الثورة السورية سنة 1925 ألقت السلطات الفرانساوية القبض على الشيخ بن يلس و على ولده الشيخ سيدي أحمد الذي خلفه على زاويته في دمشق فعذبه الإستعمار بتهمة مغادرة الجزائر بدون جواز سفر إلى أن توفي سنة 1927 و دفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق قرب ضريح الصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول عليه السلام.

هذه الأسطر القليلة تكفى للإيعاز بمدى نفوذ التصوف الجزائري في العالم بأسره. بالفعل، تتيح شمولية التربة التعبير عن الإنبساط الروحي لجماعة المؤمنين خارج حدود الوطن الأم الجزائر. بينما ترجع أهمية الظاهرة الصوفية أساسا إلى تمثيلها لخصوصية هذا الإسلام الإنعتاقي الذي يميز بلادنا. من جهة، نلحظ أن هذه الروحانية تحمل على عاتقها مهمة توصيل الرسالة الباطنية للنبوة. من جهة

ثانية، نلمس استمرارا لعلم العرفان الذي يعد إنجازا يتحقق بفعل الشفقة و الرحمة التي أتت بها تعاليم الأنبياء و الأولياء، فضلا عن استرشاد المعاني الروحية لكلام الله.

أقطاب التصوف الجزائري :

منذ ظهور الإسلام شاء القدر أن تكون الجزائر وطن الأقطاب و الأغواث من الأولياء و المرابطين الذين يشكلون المحفل الإلهي الذي يسمى عندنا بديوان الصالحين، ما يشبه حكومة غير مرئية مرتبة ترتيبا باطنيا يتناوب أعضاؤها لأجل تحمل أمانة الكون روحيا. هؤولاء الصديقين الشفعاء ذوي الطبيعة الروحانية الخالصة هم في خدمة دولة اللاهوت و لا علاقة لهم بدولة الناسوت. لا إحصائيات و لا تحقيقات من شأنها حصرهم. وحده الله يعلم عددهم و أسماؤهم.

نكرم من بين هذه الهويات الغيبية بعض الأسماء التأريخية اللامعة التي خرجت من أسر المجهولية و إخترق صيتها حدود الجزائر المرئية ليصل إلى مشارق الأرض و مغاربها حتى صارت محسوبة على تراث الإنسانية. فتعرف عليها القاصي و الداني و رفعت على قبور أصحابها القباب و المقامات و أنيرت بالشموع و المصابيح حتى لا تطؤ أعتابهم أقدام الجاهلين و الجاحدين و أقيمت على مراقدهم التوابيت تتويجا لهيكلهم النوراني و تقديسا لسرهم الإلهي. كما تشعل عند مراقدهم تقدمة بخور الإيمان و توسد باقات ريحان الغبطة و الإمتنان. من جانبها، تشارك السناجق المنسدلة على أضرحتهم المقدسة المعبقة بأريج العطر الملائكي في تشييد صرح السلطنة الباطنية تكريما لأرواح هؤولاء الأولياء الذين هم عيون الله في الأرض.

إذا كانت إنطلاقة التصوف الإسلامي في القرن السادس الهجري من العراق إلى سائر بلاد المشرق مرتبطة بإسم عبد القادر الجيلاني فلا شك أن إنطلاقته في نفس الفترة من الجزائر و إشعاعه على سائر بلاد المغرب وطيد الصلة ببزوغ نجم الصوفي الكبير أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري الذي يكون، حسب الأثر، قد إلتقى أثناء أداء فريضة الحج بصنوه المشرقي الذي ألبسه بمكة المكرمة الخرقة كإشارة لإنتقال البركة المحمدية من المشرق إلى المغرب.

تحتفظ ذاكرة التأريخ بأن أبا مدين الغوث قد شارك في فتح بيت المقدس و أنه لم يكتفي بمباركة حملة صلاح الدين ضد الصليبيين بل حارب في الصفوف الأمامية لجيشه حتى كتب للمسلمين النصر و قطع ذراع الولي الصوفي أثناء خوضه معركة حطين المشهورة سنة 1187 أين دفن كشهادة على سقاية الأراضي المقدسة بدماء جزائرية. مكافأة له على تضحيته و عرفانا منه ببسالته أوقف السلطان الأيوبي حارة للمغاربة بالقدس الشريف تولت إدارتها عائلات من أصل جزائري إلى أن إندرست معالمها حينما قام اليهود الصهاينة بتوسيع ما يعرف بحائط المبكى إثر سقوط القدس الشرقية. إذ قامت آلة التدمير الإسرائيلية صبيحة 11 يونيو 1967 بمحو تسعة قرون من الحضور التأريخي الجزائري بهدمها ما يضاهي العشرة آلاف متر مربع من المعالم الأثرية. عملية الهدم تمت في ظرف قياسي لا يتجاوز الأربعة أيام بعد إحتلال المدينة القديمة التي تم وضعها تحت الحكم العسكري. أعقبها تشريد 650 شخص أي ما يقارب 135 عائلة أعطيت لها مهلة ثلاث ساعات لتخلية المكان.

هكذا إختفى حي المغاربة الذي يعود تأريخه إلى القرن الثاني عشر و إختفى معه آخر معلم للحضارة العربية الأندلسية في فلسطين. لا شك أن سيدي أبا مدين كان قد أراد هذا الوقف حرما آمنا لمواطنيه الجزائريين و إخوانهم المغاربة الذين كانوا يشدون الرحال إلى مدينة السلام للحج و طلب العلم، منجزا عهد التعايش و الوئام بين المقدسيين نصارى كانوا أو مسلمين مغدقا على الجميع عطفه الروحي توطيدا لعلاقة القربى و التضامن التي تربط الإسلام بالإيمان المسيحي.

يلقب أبو مدين بشيخ مشايخ الإسلام و الأولياء الكبار في الأمصار و إمام الأئمة الأخيار. إشتهر ذكره في الآفاق و وقع على جلالته و ولايته الإتفاق. فهو قطب الدائرة و رجل الأولى و الآخرة. كما يعد نقطة إلتقاء التصوف المغربي و المشرقي. حتى أن تلميذ تلميذه سيدي أبا الحسن الشاذلي 1196 ـ 1258، الذي كان قد التقى، أثناء بحثه عن قطب زمانه، بأبي الفتح الواسطي أحد مقاديم سيدي أحمد الرفاعي، أعيد توجيهه من العراق إلى بلده بعد أن قال له : «*أنت تفتش عن القطب في العراق، بينما هو في وطنك. إرجع إلى هناك، فإنك تجده*»، إشارة إلى انتقال السلطة الروحية إلى الجزائر بقدوم أبي مدين شعيب، الذي تتلمذ على يديه كبار صوفية المغرب و الأندلس.

فهو شيخ مباشر للشيخ الأكبر إبن عربي الحاتمي الطائي و شيخ مباشر لقطب المغرب عبد السلام بن مشيش الذي أخذ عنه أبو الحسن الشاذلي الذي نشر بدوره طريقة شيخ شيخه أبي مدين في مصر ما يوحي بجلالة العلاقة التي تربط بين قطبي الشريعة و الحقيقة القاهرة و تلمسان. خلف تلميذ تلميذ أبي مدين ورثة عظام في أرض الكنانة من أمثال حامي الإسكندرية المحروسة سكردان الأولياء سيدي أبو العباس المرسي و إبن عطاء الله الإسكندري صاحب *الحكم العطائية* و هي أعظم ما صنف في علم التوحيد و فارس الأولياء بالديار المصرية أبو الفتيان سيدي أحمد البدوي دون أن ننسى عندليب الرسول فخر بني حماد أبو عبد الله شرف الدين البصيري الصنهاجي صاحب *الميمية* المشهورة بالبردة في مدح النبي التي لم يأت بمثلها أحد، لا من قبله و لا من بعده. و إلى سند أبي مدين شعيب، المتوفي بتلمسان سنة 1197 أين يوجد ضريحه الذي يعد معلمة من معالم فن العمارة الأسلامي، نسبة الولي الصوفي و المفسر الشهير سيدي عبد الرحمن الثعالبي حامي محروسة الجزائر و سيدي أحمد بن يوسف الملياني حامي مدينة مليانة العرصاء أحد أوتاد المغرب و أركان هذا الشأن الذي أنتهت إليه في القرن السادس عشر رئاسة السالكين و تربية المريدين بالبلاد الراشدية و المغرب بأسره.

لقد أنجب التصوف الجزائري عدد هائل من الأقطاب لا يسعنا تقديمهم جميعا نكتفي بذكر المتأخرين منهم و على رأسهم خاتم الأولياء سيدي أحمد الشريف التيجاني 1737 ـ 1815 مؤسس الطريقة التيجانية و العارف بالله سيدي محمد بن عبد الرحمن الشريف الحسني القشطولي الجرجري الأزهري 1715 ـ 1793 مؤسس الطريقة الرحمانية و كذلك الشريف الحسني سيدي محمد بن علي الخطابي المستغانمي 1787 ـ 1859 مؤسس الطريقة السنوسية.

كما برزت أسماء نساء جزائريات عارفات بالله منهن من تقلدن منصب المشيخة الصوفية كالولية الشريفة لالة زينب بنت سيدي محمد بن بلقاسم الحسنية الفاطمية الهاملية التي أدارت إحدى أهم الزوايا الرحمانية إلى أن توفيت سنة 1904 بواحة بوسعادة. مثلما لا يسعنا تجاهل أسماء عالمية تركت بصماتها على التراث الروحي للبشرية من أمثال باني الدولة الجزائرية الحديثة المجاهد و

الشاعر العالم الأديب الشريف الحسني الأمير عبد القادر بن محي الدين 1807 ـ 1883، أحد أعلام القرن التاسع عشر الذي لا ينسى له التأريخ موقفه الخالد يوم أن أنقذ حياة آلاف النصارى الشوام إحقاقا للحق و وفاء لقيمه الصوفية. ما جلب له أعلى الأوسمة و أرفع النياشين من ملوك و أباطرة العالم تقديرا و إجلالا لنبله و إنسانيته. إليه يعود أرث الطريقتين القادرية و الأكبرية. فالأمير عبد القادر يعتبر أعظم شارح لتعاليم إبن عربي، هذا الوجه الآخر للتصوف الجزائري، و أصدق ناطق بإسم مدرسته العرفانية. تعد اليوم شروحه على *الفتوحات المكية* من المصادر التي تتهافت على برمجتها و تدريسها أرقى جامعات العالم.

و نختم هذه الكوكبة بمجدد القرن العشرين الشيخ الممجد أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي 1874 ـ 1934 أخر حلقة عظمى في سلسلة الطريقة الدرقاوية الشاذلية التي تسند إلى طريق قطب أقطاب التصوف قاطبة أبو مدين شعيب الأنصاري دفين تلمسان الذي يشكل مع عبد القادر الجيلاني دفين بغداد الثنائية القطبية التي عليها مدار أمر التصوف في العالم.

رسالة الزاوية :

إن تغلغل التصوف في أجيال عديدة من الجزائريين جعل الإيمان الشعبي في هذه البلاد شديد الارتكاز على مبدأ تكريم الأولياء. و ما تناثر المقامات المكعبة الشكل الثلجية البياض على قمم التلال و الجبال التي يضاهي عددها في مطلع قرننا الحادي و العشرين الأربعة آلاف و تسعمائة زاوية إستنادا لمعطيات الإتحاد الوطني للزوايا الجزائرية إلا شهادة على حيوية هذا الإيمان. ما يدل على إنصباغ كافة مرافق الحياة الإجتماعية، الإقتصادية، الثقافية و السياسية الجزائرية بالصبغة الصوفية المرابطية. حتى يمكننا القول أن تأريخ الجزائر الإسلامي هو تأريخ صوفي. و قياسا عليه نستلزم صوفانية حاضرها و إرتسام معالم مستقبلها الروحي. إذ أن البيئة الصوفية هي التي كيفت نفسانية الفرد الجزائري على مر العصور و حددت معالم جوه الثقافي بمفهومه الشامل لطريقة الحياة و فلسفتها من أدب و سلوك و موسيقى و عمران إلخ .

تعد هذه الفضاءات التعبدية في ظل الحرية التي إستعادتها الجزائر، بعد أن دفعت ثمن التضحية الباهض، بحق أبراج للمراقبة و للذكرى. فمثلما يرجع الفضل بالأمس إلى الزوايا في الحفاظ على شخصيتنا الروحية و الثقافية رغم ما يربو من قرن و نصف قرن من محاولات المستعمر طمس هويتنا عن طريق خلخلة ركائزنا الدينية و اللغوية فهي تعد اليوم حصنا منيعا لثوابت أمتنا و قيمها المهددة بأخطار العولمة التي تحدق بها من جنبات الأرض و أعالي السماء.

مثلما هي معاقل للروح تعد الزوايا مراتع للعقل. ففضلا عن وظيفتها الأساسية المتمثلة في خلق أجواء روحانية تساعد على الخلوة و التأمل الصوفي تقوم الزوايا بوظائف حيوية في مجالات العلوم النقلية و العقلية كعلوم القرآن و الحديث من حفظ و تلاوة و ترتيل و تفسير و قراءات إلى جانب الفقه و الأصول و التوحيد و العلوم اللسانية كاللغة و البيان و النثر و الشعر و السماع و العلوم الخفية كعلم الجفر و الطلاسم و التنجيم و معارف شتى تشمل التأريخ، الفلسفة، التصوف النظري، المنطق، البيطرة، الفلاحة، الطب، النبات، الصيدلة، الكيمياء، الفلك و كذا مختلف العلوم العددية و الرياضية

بما فيها الإعلام الآلي الذي تقررت برمجته في العديد من الزوايا التي تنظر إلى المستقبل فضلا عن إقتراح دورات تربص و تكوين في مهن مختلفة تطبعها الصحبة الروحية.

إلى جانب هذه الوظائف التربوية توفر الزاوية خدمات إجتماعية و خيرية متعددة للطلبة وغير الطلبة ممن يقصدونها فيجدون فيها المأوى و المأكل و الملبس و العلاج و الدفء و الأمن طيلة إقامتهم بها. هذه الخدمات الإكتفائية التي تمول أساسا من الأوقاف و الصدقات تقدم لكل مخلوق طرق باب الزاوية و إستجار بحرمها رجلا كان أو إمرأة من الغرباء و عابري السبيل و الأرامل و الأيتام و المحتاجين و المضطهدين و المرضى و المعتوهين و المنبوذين و حتى الهاربين من القانون و المهمشين و كل من لم يجد ركنا يأوي إليه. كل هؤولاء الناس على إختلاف طبقاتهم و درجاتهم الإعتبارية يجدون في الزاوية ملاذا يأوون إليه هربا من جحيم البشر و إستئناسا بإشعاع البركة الذي يصدر عنها.

التصوف كخلاصة شاملة للحياة يصبو برأفة و رقة إلى الإجابة على كبريات الأسئلة الوجودية. فهو يجمع بين الخالق و المخلوق بين الروح و الجسد بين الفرد و المجتمع بين الإيمان و الوطن. تعد هذه الحكمة المتوارثة في الجزائر جيل عن جيل التعبير الأسمى لإنسانية الإسلام و لرسالته الكونية التي تؤكد على كرامة الرجل و المرأة بإعتبارهما يقومان معا بخلافة الله التي تعد حماية الطبيعة و تقديس العمل و نشر الأمل و الفرح إحدى ركائزها الأساسية.

تجسد الزاوية تعبيرا حيا عن حالة تأملية تنبع عن روحانية تلقائية. فهي تعمل على تغيير محيط المؤمن و تمكين هذا الأخير من الإرتقاء إلى السماء بمده قناة اتصال حميمية مع الملئ الأعلى دون قلعه عن مجتمعه و حقائقه الأرضية. هنا يكمن جوهر الوظيفة الإنسانية لهذه الفضاءات المغناطيسية المفتوحة التي تشكل بحق معارج للروح و صروح لتشييد و رعاية قيم التضامن و المحبة و السلام.

بمشموليتها للمتضادات، تنجلي الزاوية كفضاء متعدد الوظائف لدرجة إحتوائها الإكتمالي لتجربة الإنسان. بالإضافة إلى كونها حبل إرتباط مع المقدس فإن الزاوية تفتح بابا غير مرئي على المطلق و تساهم في بث الطاقات الكونية. لا شك أن قيمة هذا الإرث الروحاني المستحصل على مدار العصور أكيدة باعتباره يحمل عناصر تحليل مبتكرة بإمكانها إلقاء الضوء على جوانب إستثنائية و غير مألوفة هي من صميم ثقافتنا.

لأجل أن التصوف يلمس السر المصون و يأسس عماد ضميرنا المكنون فهو يعيد صياغة كبريات المواضيع المتداولة في فكرنا الإشراقي و يكشف لنا المعنى الروحي للتأريخ بتأويله الكشفي للحقائق التي تشترك فيها جميع الديانات الكونية. كل هذا من شأنه أن يشحن خزانة الأسرار و الأنوار التي تحملها الجزائر في باطنها و التي من شأن روح التسامح و السخاء التي تميز هذا الكنز المعنوي المساهمة بإقتدار لا يضاهى في التقريب بين الأمم و الثقافات.